في حواره مع مجلة أخبار الأدب بركة ساكن يقول: الرواية في السودان ما زالت في طور التشكيل [1]

حوار: ابتسام القشوري [2]

يعتبر عبد العزيز بركة ساكن من الأصوات المتميزة في الرواية السودانية، وهو يمثل حالة فريدة في المشهد الروائي العربي باعتبار أنّه يمضي نحو الكتابة بوجه مختلف يطرد شبح الكلاسيكية معبراً بطريقة فنية ومضمونية جديدة عن هموم وطنه الذي خربته الحروب، عن كل المهمشين الذين لا صوت لهم، عن الإنسان في كل أصقاع الدنيا منادياً بالديمقراطية والسلم والحرية. عبد العزيز بركة ساكن من مواليد كسلا.. تعرضت معظم مؤلفاته في السودان للمصادرة حتى لقب بالزبون الدائم للرقيب. وعلى الرغم من ذلك يظل هذا الروائي الأكثر انتشاراً في السودان وتتأثر بأفكاره نسبة من الشباب الذين يقرؤون كتاباته خلسة. من مؤلفاته «رماد الماء»، «زوج امرأة الرصاص وابنته الجميلة»، «العاشق البدوي»، «الجنقو مسامير الأرض» وآخرها «الرجل الخراب» وله رواية «منفستو الديك النوبي» تحت الطبع، تُرجمت بعض أعماله للفرنسية والإنجليزية. يعيش منذ فترة

(1) نشر الحوار في مجلة اخبار الادب المصرية بتاريخ 6 مارس 2016.
(2) ناقدة تونسية.

في النمسا وكان لنا معه هذا اللقاء الذي تحدث فيه عن الوطن وعن الرواية السودانية وعن الكتابة في المنفى وغيرها من المواضيع.

- بداية في نظرة سريعة إلى خريطة الأبداع العربي نجد أن الأدب السوداني لم يأخذ حظّه من الانتشار بين القراء باستثناء الطيب صالح ومحمد الفيتوري، فما العوامل برأيك التي جعلت الرواية والشعر السودانيين في هذه المرتبة؟

طبعاً هذا الافتراض كان صحيحاً تماماً في سنوات قليلة ماضية حيث فرضته ظروف عزلة موقع وعزلة هوية وعزلة إعلام، بالإضافة لعدم قيام الدولة بواجبها في رعاية الثقافة والفنون عامة، والاستثمار في الفن كأحد مجالات التنمية المهمة. وإهمال الدولة نتج عنه أن المبدع عليه بجانب إنتاج العمل الفني أن يقوم بالتسويق لنفسه. أما عزلة الهوية فهي إننا كشعوب سودانية تتقاسمنا هويات شتى بحكم الموقع الجغرافي، لكن تبنِّي الدولة لهوية واحدة دون الأخريات وضعنا في موقع اللاهُوية. بالتالي لم يهتم العرب الذين تبنت الدولة الانتماء إليهم قضيتنا الأدبية ولم يضعنا الأفارقة في أجندتهم الثقافية، ولم تقم الدولة بسد الهوة. فكانت العزلة الإعلامية من قبل الدول العربية والإفريقية معاً، ولكن اليوم، والفضل يعود لهجرات الأدباء إلى دول عربية أو أوربية للعمل أو الدراسة، استطاعوا أن يجعلوا للسودان اسماً وسط القارئ العربي، والقارئ العربي المواظب سوف يستحضر في ذاكرته عدة أسماء إلى جانب الفيتوري والطيب صالح مثلاً: منصور الصويم، أمير تاج السر، طارق الطيب، ليلى أبو العلا، جمال

محجوب، استيلا قايتانو، أحمد الملك، بشرى الفاضل وغيرهم من السرديين الذين استطاعوا كسر حاجز العزلة.

- أنت من جيل التسعينات ظهرت مع ثلة من الروائيين أمثال أمير تاج السر، محمد حسن البكري، أبكر آدم إسماعيل، ليلى أبو علا وغيرهم الذين غيروا في منحى الرواية السودانية، فما أهم ملامح الرواية السودانية الجديدة؟

أُفضِّل «ملامح الرواية في السودان» أكثر من «ملامح الرواية السودانية»، لأن الرواية في السودان ما زالت في طور التشكيل وتحتاج لتراكم كمي ونوعي حتى تظهر ملامح تخصها دون غيرها، ويمكن حينها أن نطلق عليها الرواية السودانية، وهذا أيضاً شبه مستحيل وفي الغالب ستنحو منحى الرواية في الدول الأخرى حيث يصعب تشكيل ملمح روائي يخصّ دولة بعينها، ولكن يسهل نسب الرواية لكاتب، مثلاً أن نقول: رواية نجيب محفوظ أو رواية إدوارد الخراط أو رواية صنع الله إبراهيم أكثر مما يمكننا قول: الرواية المصرية. وكذلك الأمر في تونس والجزائر والأردن وأمريكا وألمانيا وغيرها، وذلك للبون الشاسع في طرائق كتابة الرواية من روائي لآخر من نفس القطر ونفس الجيل. ففي السودان ما يميز رواية مبارك الصادق ليس هو ذاته في رواية إبراهيم إسحق أو شيخ الرواية في السودان عيسى الحلو. ولجيل التسعينيات أيضاً ذات الخاصية، ولو أن أبكر آدم ومنصور الصويم يميلان للرواية التي تتناول مواضيع الهُوية ويختلفان في طرائق التناول وعمل الأدوات الفنية واللغة وهكذا.

- في معظم رواياتك تحاول أن تجسد حلمك: الحلم بالقومية السودانية. هل ترى أن هذا الحلم ممكن التحقيق والسودان يتكون من 19 جماعة عرقية وحوالي 600 جماعة عرقية فرعية؟ أليس هذا الحلم حلماً طوباوياً يصعب تحقيقه؟

لا مستحيل في ذلك، ولكن يجب ألا يُفهم معنى التوحيد أن تكون للشعوب السودانية كلها هُوية واحدة، أبداً، إنما الوحدة في التنوع، أقصد استثمار التنوع من أجل خلق أمة سودانية ومشروع قومي وطني حقيقي يتيح لكل الثقافات أن تنمو بصورة طبيعية، يحقق الأمن والاستقرار يوقف الحروب التي تدور في السودان من قبل الاستقلال إلى اليوم، حلم الأمة المتسامحة حيث يسود الاعتراف بالآخر المختلف، وأن يكون دور الدولة هو رعاية الاختلاف واستثماره وليس محوه واستنهاض رؤية وحدوية إقصائية بغيضة، تلك التي تقود الآخر لحمل السلاح دفاعاً عن هويته.

علاقتك بالسلطة الحالية بالسودان متوترة إذ اعتقلت في سنة 2012م، مُنعت كتبك من أن تعرض في معرض خرطوم الدولي للكتاب، صُودرت رواياتك مسيح دافور ورواية مخلية الخندريس والمجموعة القصصية امرأة من كمبو كديس؛ فهل هذا يعود للإيحاءات الجنسية كما تدَّعي السلطة أو لمواقفك السياسية لو توضِّح لنا ذلك؟

أظن أن وراء ذلك كيد سياسي وجهوي أكثر مما هو أدبي أو أخلاقي؛ فاللغة التي أستخدمها يستخدمها كثيرون غيري من الأدباء السودانيين،

والكلمات التي في نصوصي توجد كلها في قاموس العامية في السودان، للمرحوم البروفيسور عون الشريف قاسم، وهذا الكتاب موجود في معظم البيوت في السودان، ولم تمنعه السلطات أو تصادره كما أنّ هذا الكتاب لم يُفسد أحداً على حسب علمي إلى الآن، لماذا تمنع أعمالي أنا بالذات؟ وهي ليست نشازاً من مجمل التحقق السردي في السودان فيما قبل الأستاذ الطيب صالح والطيب صالح نفسه وما بعده؟ هل لذلك علاقة بما يحدث في دارفور من إبادة؟ هذا سؤال مشروع.

- رغم هذا المنع ورغم أنك الزبون الدائم للرقيب إلاّ أنّك من أكثر الكتاب قراءة في السودان، وتأثيراً في جيل الشباب وطلاب الجامعات الذين يقرؤون ويتداولون رواياتك خلسة؟ فهل تعتبر ذلك مؤشراً إيجابياً؟

في عصر الإنترنت، في عصرٍ تنتشر فيه الماكينات الطابعة سهلة الحركة، وحيثما وجد المضاربون الذين يبحثون عن الربح السريع في سدّ هوة الطلب، لا يمكن منع كتاب من الوصول للقارئ، أينما كان، والأفكار الظلامية لا يمكنها غير إصدار قرار بالمنع ولكن ليس بعدم القراءة. فكتبي متوفرة ولو أنها مزورة في طبعات رديئة مستعجلة وتصوير سيئ وأحياناً يتداولها الناس بالبلوتوث وغيرها من أدوات التواصل الإلكترونية، أيضاً تُهرّب بعض الكتب إلى الداخل من مصر، والغريب في الأمر أن بعض الرسميين يتاجرون في كتبي أيضاً ويربحون من بيعها ويحصلون عليها عن طريق المصادرة من أصحاب المكتبات أو المهربين: في السودان

الآن بعض الكتب في حُرمة المخدرات. الأجيال الجديدة في السودان تقرأ بصورة مقبولة ولو أن ذلك دون المطلوب، ولكن في ظروف الفقر وتسلط الدولة وانتشار الفكر الإخواني الهدام، فإن القراءة تعتبر عملاً نضالياً بحتاً ومقاومة لقوى الظلام.

- معروف أن الموروث الشعبي السوداني غني جداً نظراً لحفاظ هذا الشعب على جانب البداوة فيه، في مجمل رواياتك استلهام للموروث الشعبي السوداني هل هو مساهمة منك في الحفاظ على الذاكرة السودانية من التلاشي؟

الناقد والروائي السوداني عماد البليك أشار في مقالة له إلى البداوة العنيفة المتسترة خلف عنوان رواية العاشق البدوي، بداوة الدولة المتمثلة في عنفها أي تقنين العنف أو السكوت عنه أو حماية الذين يقومون به وشرعنة السلوك غير المتحضر. ولكن الحفاظ على الإرث الثقافي لا يعني الحفاظ على السلوك البدوي الذي يَهدم القيم الإنسانية النبيلة التي تحفظ التعايش السلمي والمشترك بين البشر والشعوب في وطن شاسع مثل السودان، وهنا نتحدث عن البداوة المنقولة فكرياً، الواردة مع نصوص أُلبست قدسية خاصة لأسباب سياسية واقتصادية، أي ليست منتجاً محلياً لشعوب لها حضارات راسخة قبل ميلاد السيد المسيح بما يقارب سبعة قرون، بداوة مثل عاصفة ترابية تهب من صحراء قاحلة لتخفي هرماً.

- تقول سيمون دي بوفوار «إن المرء لا يولد امرأة وإنما يصبح امرأة» في مجموعتك القصصية امرأة من كمبو كديس

نقد لاذع لوضعية المرأة بالسودان، وفي معظم رواياتك الأخرى تكون بطلة وفاعلة، هل هو انتصار لها في الأدب؟ وما رأيك في وضعية المرأة السودانية اليوم؟

في الحقيقة المرأة السودانية، على الرغم من التميز ضدها والمعاناة التي تواجهها يومياً في ظل حكومة التطرف الإسلامي والهوس الديني في الخرطوم؛ إلاّ أنها أحياناً أحسن وضعاً من رصيفاتها في كثير من الدول العربية من ناحية الحقوق المنصوص عليها في القانون؛ مثل حق الترشيح والانتخاب وحق الأجر المتساوي مع الرجل وحق الطلاق والزواج وغيرها من الحقوق السياسية والاقتصادية، ولكن ما تعانيه فعلاً هو ما تحدثنا عنه في إجابة سابقة، وهو البدوية السلطوية، ويعاني الرجل أيضاً منها، فوضع الرجل والمرأة معاً فيما قبل 1989م كان أفضل بكثير، والمجتمع السوداني الريفي هو مجتمع في ظاهره ذكوري ولكن في باطنه أمومي؛ فالأم هي كل شيء، ففي الأحياء الصغيرة يعرف الأطفال بأسماء أمهاتهم. فمثلاً أنا: عبده ود مريم، والبجا يحبون أسماء مثل، أبو آمنة أبو فاطمة، أبو حواء، وكثير من الرجال تلصق عليهم أسماء نسائهم المعروفات في الحي، مثلاً آدم راجل خديجة، وهكذا. والمرأة في دارفور والنيل الأزرق ذات مكانة اجتماعية كبيرة وهي عاملة في كل ما يقوم بعمله الرجال، وذات رأي، بل تستطيع امرأة أن تشعل حرباً بأغنية أو قصيدة شعر.

- نلاحظ أن الأدب اللبناني تأثر بالحرب الأهلية اللبنانية وأنتج أدباً وفنوناً تؤرخ لهذه الحرب ونتائجها النفسية

والمادية والاقتصادية على البلد والأشخاص، فهل حدث نفس الشيء بالنسبة للأدب السوداني بعد الحروب الأهلية التي خلفت ما يقرب من مليوني قتيل وبلدٍ تمت تجزئته إلى دولتين يواجهان خطر الحرب الشاملة؟

كنت قريباً جداً من الحرب في دارفور والنيل الأزرق وفي شرق السودان أيضاً، ومن أسرة بها كثير من الجنود، ولدي أصدقاء كانوا ضحايا الحروب، مثل شيكيري توتو كوة الطفل المجند الذي قُتل في حرب الجنوب وتم نسيانه تماماً. ولم تغب الحرب لحظة من أعمالي الأدبية، والحروب في كل العصور كانت ملهمة للفنانين والمبدعين، لأنها ترعبهم فيلوذون بأقلامهم وريشاتهم كتعويذة تقيهم شرها. وأنا أيضاً كنت أتقي شر الحرب وأتخلص من خوفي منها بكتابتها روائياً. كما أن من يرغب في التخلص من سحر المرأة يقوم بالزواج منها، فتزوجتها. الآن استوحى الكثيرون الحرب في قصصهم، أقصد في السنوات الخمس الماضية صدرت روايات كثيرة تناولت الحرب بصورة أو بأخرى، خاصة روايات «التسعينيين». فهم مغامرون ومجددون ومخربون.

- تعرضت في روايتك الأخيرة «الرجل الخراب» إلى مسألة مهمة وهي مسألة الصراع الحضاري بين العرب والغرب، هل تعتقد أن الرجوع لهذه التيمة ضرورة اليوم؟

أصبح سؤال الصراع الحضاري أكثر تعقيداً، لأنّ هنالك شكوكاً في هل أنّه فعلاً صراع حضاري أم صراع قوى؟، في ظنّي أنّه صراع قوى سياسية،

صراع من أجل الحصول على موارد أكثر، وإن أخذ ظاهرياً صورة الصراع الثقافي الحضاري وتمظهر في الدين بصورة فجة، يبقى الصراع صراعاً من أجل الاستحواذ على السلطة التي أعني بها القوة والثروة، وقد تديره دول أو جماعات أو يقوم به أفراد منعزلون وشركات عابرة للقارات أو مؤسسات دينية لا فرق، ومن التبسيط بإمكان القول إن الصراع هذا الذي يلبسه البعض الثوب الحضاري هو لا يلتفت للحضاري إلا عندما يرغب في استغلاله واستخدامه: فلننظر عن قرب، من الذي صنع التيارات الإسلامية الكبيرة والمؤثرة التي تملأ العالم ضجيجاً اليوم؟، أليست هي الدول ذاتها التي تبدو في الظاهر تختلف عنها ثقافياً؟ الولايات المتحدة والقاعدة نموذجاً. في ظني الصراع بين الغرب والشرق ليس صراعاً ثقافياً بل إنه صراع من أجل الاستحواذ على مزيد من السلطة، والتي أعني بها القوة، التي هي الثروات في معناها المتسع الشاسع.

- قدمت من خلال شخصية «درويش» الشخصية الرئيسية في الرجل الخراب نقداً لاذعاً للثقافة العربية وترسباتها المتخلفة، هل تعتقد أنّ هذا ما ينقص العقل العربي: النقد الذاتي؟

من غير اللائق القول إن العقل العربي هو عقل غير نقدي، بهذا التعميم، ولكن الخطابات السلطوية قديمها وحديثها في هذه البلاد هي التي تبقي الكثرة في حيز الأحلام والعواطف في سجن الفهم الخاص للدين والعالم، أي ما تصطحبه السلطة الحاكمة من الدين، أقصد ما يفيد بقاءها

واستمراريتها، وهنا الأفضل للسلطة هو العقل النائم أو المنوم أو المسرنم، وليس العقل النقدي اليقظ، أفضل لها الجهل وليس المعرفة والعلم، وهكذا أصبحت السمة الغالبة لهذا العقل هي العاطفة، التأثر السريع بالخطابات المفخخة، أي العقل الفتوي النقلي، عقل النسخ واللصق.

- في مجمل رواياتك تنحو إلى التجريبية المفرطة والخروج عن قواعد الرواية النمطية: تعدد الرواة، تكسير الخط الزمني، رمزية المكان، تضمين التقنيات الحديثة، الآرساليات، المزج بين الأجناس الروائية: المذكرات، الرواية، اليوميات، هل يعود ذلك إلى تأثر الرواية السودانية بالروافد الأجنبية؟

الرواية في أصلها هي عمل أجنبي بحت خارج حدود الوطنية والمواطنة، عمل مستورد بل يمكن أن نطلق عليه صفة العمالة والخيانة الوطنية. وعندما يكتب الروائي فإنه يعمل على خيانة بمستويات مختلفة: خيانة اللغة، خيانة نفسه، خيانة مجتمعه، خيانة دولته وشعوبه، خيانة الرواية ذاتها أو حتى الشروع في خيانة غير موجهة لشخص أو شيء ما. وكنت وما زلت أكبر عميل للمُخبِر إدجار آلان بو والجاسوس اللبناني جبران خليل جبران والمفسد الأكبر: الخيال البشري.

- ترجمت بعض أعمالك للغات أخرى؛ روايتك الجنقو مسامير الأرض تُرجمت للإنجليزية وتُرجمت مسيح دارفور للفرنسية، هذه الالتفاتة المهمة من المترجمين لكتاباتك هل ترجع لعلاقاتك وإقامتك في المنفى أم هو الوضع في السودان؟

كل أعمالي التي تُرجمت إلى لغات أخرى تمّت ترجمتها بينما كنت أقيم في السودان بقرية في النيل الأزرق اسمها الكُرمُكْ، وبعض المترجمين قاموا بزيارتي هناك وأقاموا معي لفترات قصيرة، مثل البروفيسور إكزافيه لوفان البلجيكي الذي ترجمني للفرنسية، وماري أونيل التي ترجمت شيئاً من نصوصي للسويدية. الآن يعمل المترجم الألماني الكبير غونتر أورت على ترجمة مسيح دارفور للألمانية، ويقوم الأستاذ عادل بابكر بمواصلة ترجماته لكتاباتي بترجمة مسيح دارفور للإنجليزية، وكان قد ترجم من قبل الجنقو للإنجليزية، كما يعكف البروفيسور رودلف راينر في النمسا على ترجمة مجموعة من قصص الأطفال صدرت بالفرنسية إلى الألمانية، وهي الترجمات القليلة التي حدثت بينما أنا أقيم في المهجر، والشيء الغريب أنّ مجمل إقامتي في المهجر لم تتعد السنة وستة أشهر فقط، على الرغم من ذلك يتحدث الناس عن هجرتي وكأنما كنت أقيم منذ ميلادي في المنفى: والمنفى لا يعني في كل الأوقات المنفى، فقلبك منفاك الأعظم.

كيف تُقيّم اليوم المشهد الأدبي السوداني؟

من ناحية التحققات الثقافية التي تعتمد على الفرد كمنتج، جيد. من ناحية المؤسسة الثقافية ودور الدولة، قاتل. ومن ناحيتي: مُربِكْ.

- هل تحول بركة ساكن إلى ناشط حقوقي يفضح التراجيديات السودانية للعالم؟

لم أتحول. إنما كنت دائماً ناشطاً حقوقياً، فالإنسان ناشطٌ حقوقي منذ ميلاده.